المُحاضرة ٢٠

أثر ملحمة كلكامش في الإلياذة ...

لم يحظَ أثر أدبي قديم أو حديث من آداب الشّرق الأوسط ، باهتمام المثقفين والباحثين الغربيين ، بمقدار ما حظيت به "**ملحمة كلكامش**" العراقية ، فمنذ أن ترجمها (**جورج سميث**) إلى الانكليزية في عام ١٨٧٢م ، وهي تشغل الأوساط الدبية والفكرية والنقدية في أمريكا والغرب .

بعد ما نقلت إلى الانكليزية ظهرت لها ترجمات فرنسية وألمانية وروسية وهولندية وسويدية وإيطالية وإسبانية وتركية وفارسية وعبرية وغيرها ، وككل الأعمال الكلاسيكية الرائعة التي لا تستطيع ترجمة واحدة من أن تستنفذ مضامينها ودلالاتها ، أخذت تظهر لملحمة "الرافدين" ترجمات عديدة ومختلفة في معظم بلدان العالم ، ففي الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا هناك الآن ما لا يقل عن عشرين ترجمة انكليزية لذات النص ، كانت أشهرها الترجمة الشعبية التي قامت بها (ساندرز) ونشرتها دار "بيكوين" ، ثم تلتها ترجمة (جان كاردنر) و (جان منير) التي نشرتها دار "فينتج" الشهيرة .

وخلال العقد الأخير ظهرت ترجمات جديدة قام بها مختصون بالآشوريات ، أمثال (ستيفي دالي) ١٩٨٩، و(مورين كوفاكس) ١٩٨٩، و(سميا شابندر)١٩٩٤، و(اندرو جورج) ١٩٩٩، و(ستيفن ميتشل)٢٠٠٤، وأخيراً حين لمس بعض الشعراء الأميركان بأن الترجمات النثرية عاجزة عن نقل الصور والمجازات والإيقاعات الشعرية للنص الأصلي ، أخذوا يقدمون بترجمتها شعراً . وخلال

العقدين الأخيرين ظهرت ترجمات شعرية للملحمة قام بها (هيربرت ميسن) ١٩٧٠، و(روبرت تمبل) ١٩٩١، و(ديفيد فيري) ١٩٩٢، و(داني جاكسن) ١٩٩٧.

إن تأثير ملحمة كلكامش في الثقافة الغربية القديمة والمعاصرة ، لم يعد أمراً يحتاج إلى برهان ، فمنذ أن صارت الملحمة جزءاً من برنامج العلوم الكلاسيكية والأدب العالمي - في الأربعينيات - أخذ تأثيرها يظهر واضحاً في الأبحاث الكلاسيكية ، التي اعتمدت المنهج المقارن في البحث عن الجذور التاريخية والاسطورية والأدبية لملاحم هوميروس وهيسيود وغيرهما .

كما اتبع باحثو الأديان والأساطير المنهج التاريخي المقارن في دراساتهم للأصول القصصية في الكتاب المقدس لمعرفة مدى تأثرها بالحوادث الواردة في "ملحمة كلكامش" . كما أن تطور منهجيات الأدب المقارن المعني بقضايا "التناظر" بين مختلف الأعمال الأدبية والفلسفية لشعوب مختلفة ، شجّع بعض الباحثين في مجال الفلسفة على دراسة التناظر بين المضمون الفلسفي لـ"**ملحمة كلكامش**" و"**مأدبة**" إفلاطون .

وقام بعض علماء الانثروبولوجيا بقراءة بنيوية للملحمة مؤكدين على أنها تعبير عن مبدأ التعارض بين الطبيعة والثقافة ، وهناك أيضاً من ينظر إلى الملحمة على أنها تنطوي على الأُسس الدينية والفلسفية ، التي اعتمدها (**نيتشه**) في تفسيره لنشوء التراجيديا اليونانية .

أثر ملحمة كلكامش في الثقافة اليونانية القديمة ...

ظلّ الباحثون الغربيون ينظرون إلى ملاحم هوميروس وهيسيود ، على أنها نتاج متميز للثقافة اليونانية ، واكنوا يعتقدون أنه لا علاقة لهذه الملاحم ـ سواء من حيث نشؤها أو أشكالها أو موتيفاتها أو مضامينها أو أساليبها ـ بثقافة الرافدين القديمة ، وكانت حجّة هؤلاء الباحثين أنّه لم يكن هناك أيّ تفاعل بين اليونان القديم وشعوب الرافدين ، او سورية الطبيعية خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

هذه النظرة التي تتّسم أحياناً بالتعصّب لمصادر الثقافة الغربية ، وتارة بالاحتقار لثقافات الشعوب الشرقية ، وصفها الباحث الألماني الشهير (**ولتر بيركيرت**) ـ في ندوة ضمّت مختصين في الأدب اليوناني القديم ، وذلك عام ١٩٨٢، بمدينة ستوكهولم ـ قائلاً :"حتى الآن يعتبر الاستفسار عن الأثر الذي تركه الفن الشرقي للكتابة على الإلياذة والأوديسا ضربٌ من الهرطقة" . أيّ لا يزال هناك من يعتقد أن عظمة الأدب اليوناني القديم تكمن في أُحادية مصدره اليوناني . "وهنا يحضرني ما قاله (**كارل ثومبسن**) عن الطريقة التي يفهم فيها بعض الباحثين في الأدب اليوناني القديم "غالباً ما توصف الثقافة الرائعة لليونان القديم ، بأنّها معجزة انبثقت عن عبقرية خاصة بها ولا تدين بشيء لجاراتها" .

ولكن هذا التشنّج اخذ يتلاشى تدريجياً على أثر الحفريات الحديثة التي تؤكد أن انتشار "ملحمة كلكامش" لم يكن محصوراً في أرض الرافدين ، بل انتشرت في معظم كيانات سورية الطبيعية وآسيا الصُّغرى ، إذ عثر على نسخة من الملحمة في أرشيف العاصمة الحثيّة في أناتوليا مكتوبة بالأكدية السامية . وكانت الملحمة قد

ترجمت حوالي (١٣٠٠ ـ ١٣٥٠) أيضاً إلى اللغات الحورية واللغة الحثيّة التي هي هندو أوروبية ، كما عثر على جزء صغير من الملحمة وهو في غاية الأهمية في منطقة مجيدو بفلسطين ، يُشير إلى وجود نسخة كنعانية أو فلسطينية متأخرة .

أمّا حفريات راس شمرا (**أوغاريت القديمة**) في الساحل السوري ، فقد كشفت النقاب عن قصة الطوفان التي يعتقد أنها اشتقت من قصة الطوفان التي تشكل جزءاً من ملحمة كلكامش . فمعظم الترجمات القديمة للمحلمة ، كانت قد انتشرت في مناطق مختلفة من آسيا الصُّغرى ـ بما في ذلك اليونان ـ قبل ظهور هوميروس وهيسيود بما لا يقل عن أربعمائة سنة .

الأمر الذي التبس على الباحثين الغربيين الذين يدرسون الأشكال الأدبية ، وتقنياتها وخصائصها يكمن في أنهم لم يميزوا بين المثاقفة التي قد يتعرض لها شعب في مرحلة ، بحيث تترك تأثيرها على تصوره لذاته وعالمه وآلهته ، وهو غير واعٍ لها ؛ لأنّ ثقافته تمثلها واعتبرتها جزءاً من تراثه ، وبين التأثير المباشر الذي قد يتركه تيار فكري أو سياسي أو أدبي على جيل من المثقفين أو الكتّاب .

ليس لِـ"ملحمة كلكامش" تأثير مباشر على هوميروس وهيسيود شخصياً ، بل على الثقافة اليونانية التي كوّنت تاريخياً المخزون الأدبي والديني ولاسطوري ، الذي منه انتهل كلّ من هوميروس وهيسيود المواد اللّازمة لصياغة ملاحمهم ، وبمعنى آخر ، إنّ المواد الاسطورية اليونانية ، قبل أن تأخذ شكلها الملحمي عند هوميروس وهيسيود ، كانت قد تشربت بعض خصائص أدب الرافدين ، فتأثر هوميروس

وهيسيود بِـ"ملحمة كلكامش" هو غير مباشر وغير واعٍ ، هو تأثُّر بتراث يوناني متشرّب لثقافة الشّرق الأوسط القديم .

فانتشار الملحمة الواسع في مناطق جغرافية متعدّدة من آسيا الصُّغرى ، والعثور على ترجمات مختلفة لِـ"كلكامش" حمل الكثير من الباحثين على إعادة النظر في مسألة التفاعل الثقافي بين اليونان القديم والشرق الأوسط ، وحثَّهم أكثر على متابعة الدراسات المقارنة لاستجلاء أوجه الشبه أو التناظر بين ملحمة الرافدين والتراث الملحمي اليوناني القديم ، وهذا أيضاً وفَّر لهم إمكانية تحديد الإطار التاريخي والثقافي الذي احتضن عملية تفاعل تلك الثقافات .

وتبلورت نتائج هذه المحاولات التي ظهرت منذ الستينيات في أعمال العديد من الباحثين أمثال (وبيستر) و(ولكوت) و(لورد) و(كريسيث) و(ويست) و(بيركيرت) وغيرهم . وخلص هؤلاء الباحثون إلى أنّ تأثيرات أدب الرافدين تجلَّت في التناظر القائم بين رسم سمات بعض الآلهة ، وسايكولوجية بعض الشخصيات الملحمية ، وسياق بعض الأحداث ، وأساليب شعرية اتّبعت في ملحمة كلكامش وملاحم هوميروس .

يؤكد (**البيرت لورد**) الباحث الأميركي الشهير بدراسته عن الفولكلور والأدب الملحمي ، أنّ ملاحم الشرق الأوسط القديمة كانت معروفة لليونان المعاصرين لِـ"هوميروس" ، أو كان لها تأثير على اليونان قبل "هوميروس" . ويُشير لورد إلى أوجه الشبه بين "كلكامش" و "الإلياذة" قائلاً :"في ملحمة كلكامش يتحدّى كلكامش وانكيدو ما حرّمته الآلهة ، وإنّ قرار الآلهة في القضاء على

انكيدو وليس على كلكامش يتكرّر في إلياذة هوميروس ، حيث تقضي الآلهة على صديق البطل . وهناك تناظر آخر بين **كلكامش** و**أخيل اليوناني** ، إذ أنّ كلّاً من البطلين ثلثاه إله والثلث الآخر إنسان . ويُشدّد لورد على التشابه في الروح بين المحلمتين من حيث خاتميتها المسالمتين : أيّ قبول كلكامش بفشله في اكتناه سر الخلود وقبول آخيل لِـ"**برايم**" ، وآخيل مثل كلكامش يُصارع رهبة الفناء وفي الناهية يذعن له .

أمّا (**ثومس وبيستر**) فيُشير إلى أنّ العلاقة بين الآلهة والأبطال القدماء تشفُّ عن عدد من المواقف المشتركة بين الشعر الشرقي وأعمال هوميروس . ويرى تناظر بين المجالس الآلهيّة في "**ملحمة كلكامش**" و"**الإلياذة**" و"**الأوديسا**" . ويُلفت (**وبيستر**) مثلاً النظر إلى تناظر بين قتال كلكامش مع الوحش همبابا وثور السماء ، وقتال هرقل وبيرسوس ضد الغرغونة ، ويتّفق (**وبيستر**) و(**ولكوت**) على أنّ التناظر بين الأساليب الشعرية في ملحمتي هوميروس وملحمة كلكامش ، لا سيما في استعمال الصفات المتعدّدة عند إيراد أشياء أو أحداث جديدة ، عندما يموت انكيدو ، مثلاً ، يرثيه كلكامش قائلاً :"مثل أسد رفع صوته ، ومثل لبوءة حرمت من شبلها" ، ويذرع **كلكامش** المكان جيئة وذهاباً قرب سرير صديقه ، ويُناظر هذا المشهد ـ في الأليادة ـ آخيل الذي يعدّ مأتماً لصديقه . ففي الوقت الذي يندب **الآخيون بتروكلس** ، يبدأ **آخيل** الرثاء ، واضعاً يديه المجرمتين على صدر صديقه وهو يئن بعمق مثل "أسد ملحمتي سرق الصياد أشباله" .

يصف (**وبيستر**) هذا التناظر بين الاستعارتين بأنه مدهش للغاية . أمّا التناظر بين العلاقتين المزدوجتين بكل من **كلكامش وآخيل** ؛ فهو أكثر إذهالاً : **آخيل** هو البطل الوحيد في الإلياذة ، الذي لا يمكن تصوره بدون أمه وصديقه ، وهذا يُماثل علاقة **كلكامش** بأمه وصديقه انكيدو ، ويميل (**وبيستر**) إلى الاعتقاد بأنّ هذه العلاقة المزدوجة التي أوحت بها "**ملحمة كلكامش**" قد تمّ اقتباسها في مرحلة مبكّرة للغاية ، أيّ قبل ظهور هوميروس .

ولعب (**جيرالد كريسيث**) الباحث الأميركي دوراً هامّاً في الكشف عن العلاقة بين "**ملحمة كلكامش**" وملاحم "**هوميروس**" . إذ يُقارن (**كريسيث**) شخصية "**أتونابشتم**" ـ في ملحمة كلكامش ـ بشخصية "**السينوس**" ـ في ملحمةالأوديسا ـ كاشفاً النقاب عن تناظر في رسم الشخوص ومنحى الأحداث . مثلاً : يعيش السينوس في جزيرة نائية مع زوجته والملكة أريث ، **والسينوس** ، مثل **أتونابشتم** هو كائن أزلي ، كما أنّ لدى **السينوس وأتونابشتم** أداة نقل لإعادة الأموات إلى أوطانهم ، ويتمّ هذا في الملحمتين عبر قارب سحري . أمَّا جزيرة **أتونابشتم** وكذلك **السينوس** فلا يمكن الاقتراب منها إلَّا بعد اجتياز مياه خطيرة وصعبة ، ونجد أنّ البطلين ـ **كلكامش وأويسيوس** ـ يصلان كلّ إلى جزيرته بعد أن نال منهما التعب وينامان في الحال رغم تحذير **أتونابشتم** لـ"**كلكامش**" وتنبيه **اسينوس** لِـ"**أوديسيوس**" .

ويورد (**كريسيث**) أوجه شبه أُخرى كـ"رمي **انكيدو** لفخذ الثور في وجه عشتار" ، الذي يناظر "الجرح الذي يحدثه **ديوميديس** لِـ**أفروديت**" آلهة الحب في

"**الأوديسا**" ، ومثلما تهدد **عشتار أنو** ـ إله السماء ـ بإطلاق سراح الأموات ، هكذا تضغط **هيليوس** في "**الأوديسا**" على زوس مهدّدة بأنّها ستهبط إلى عالم الأموات وتنشر النور بينهم .

إنّ هذا التناظر بين "**ملحمة كلكامش**" وملاحم **هوميروس** ليس وليد الصّدفة ، بل يدلّ على تأثّر ثقافة اليونان القديمة بثقافة الرافدين البابلية والآشورية المنتشرة بين شعوب آسيا الصُّغرى التي كانت قد عرفت "**ملحمة كلكامش**" عبر ترجمات حثيّة وحورية وعلامية .